باقة من نصائح وعظات

القديس مار أفرام السرياني

١٩٦٩

بولس جميعان

باقة من نصائح وعظات

القديس مار أفرام السرياني

الجـــزء الثـــانى

طبعة ثانيـــة

١٩٦٩

يوسف حبيب

« باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد امين »

غبطة أبينا المكرم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة الطبعة الأولى

بعد ان قدمنا لك « دموع التوبة » للقديس الأنبا افـرآم السريانى ذلـكم العلامة اللاهوتى الخطير صاحب التفاسير والميامر العديدة (فى القرن الرابع)، نقدم لك هذه الباقة الذكية الرائحة منتقاة من نصائحه وعظاته بعد تصحيحها وتنقيحها راجين من الرب يسوع ان يحرك قلوبنا لعمل مايرضيه وينفعنا ببركة صلوات القديسين اجمعين وبالاكثر القديسة الطاهرة مرتمريم العذراء آمين.

١٩٦٦

† † †

نظرا لنفاد الطبعة الأولى رأينا اعادة طبعه

١٩٦٩ يوسف جميل

بعض نصائح وحكم القديس[1]

حب الطهارة

كل من يحب الطهارة والعفة يكون هيكلا لله ، وكل من يحب خلاص نفسه يصير منزلا للروح القدس .

† من يحفظ أعضاء المسيح حفظاً باراً يتبرر ومن يفسد هيكل الله يفسده الله .

† كما أن البخور يلذذ الأنف هكذا يسر بالطهارة الروح القدس ويسكن فى الإنسان .

† النور العظيم والفرح والسلامة والصبر تسكن فى الطهارة، والحزن والضجر والنوم الذى لا يشبع منه والظلمة المدلهمة تسكن فى الزنا .

† كرامة عظيمة الطهارة بمحبة المسيح ، وإهانة عظيمة ارتكاب الزنا .

القتال ضد الزنا

كما تطرد الكلاب حارب شيطان الزنا ولا تنقاد جملة مع هذا الفكر (فكر الزنا) فإن من شراوه يتكاثر الجر ومن الفكر

(١) عن المقالة الثامنة من مقالات القديس بعد تنقيح وتصحيح عباراتها وترتيبها ترتيباً خاصا ووضع العناوين المناسبة .

الردىء تتزايد الشهوات الرديئة ، ابغض ذكرها وأكثر من ان تمكنس نتن الحمأة .

† ضيق على شهوتك أيها الحبيب قبل أن يضيق عليك من اجلها فإنها تحدر إلى قاع الجحيم الذين يتبعونها .

† إذا كنت تتمسل وآذاك روح الزنا فلا تضجر بل مد يديك للصلاة وإن ثقل عليك فاحن ركبتيك فإن صلاة الإيمان تحارب عنك .

الشياطين تفرح بالزنا

† كما يطرب الخنزير من التمرغ فى الحمأة هكذا تطرب الشياطين بالزنا والنجاسة .

اقتناء طهارة النفس أهم من زينة الجسد

† أيها الأخ أهكذا بلا خشية تنظف ذاتك وتزينها ، اسمع الرسول يقول : أما الشهوات الشبابية فاهرب منها ، لأنك لا تعرف أى عدو تصارع ...

† أتعرف أية نسانة مهلكة وتقبح يزمع أن يرثها الذين يعملون هذه القبائح ، أريد أن أعرفك هذا أنه إن كان الإنسان الخارجى نظيفاً وخزانة النفس قذرة فلابد ان حسنه يتشوه ، لكن اذا إقتنيت جمال النفس فإن النفس تعطى من نورها للإنسان البرانى وهذا الحسن يبقى لك .

+ من يزين ثيابه ويملأ بطنه يقاتل كثيراً ومن هو متيقظ يكون مرهوباً من المضادين .

اقتناء الفوائد الروحية

+ من هو أوفر عجزاً ممن هو عطشان وهو جالس بقرب عين الماء ولا يمد يده ليأخذ ما يسكن عطشه ؟ ومن هو أكثر توان ممن له كتاب يملكه ويتوانى عن القراءة فيه ؟!

اذكر خالقك فى أيام شبابك

+ يا أخى امتنع عن الخلاعة والمزاح لئلا يجعلك عادم الحياء. فإن عدم الحياء هو أم الفجور .. ، فتضيع بغتة فى العفة .

+ استيقظ أيها الحبيب يقظة جزيلة فى شبابك لتوجد فى أواخرك مؤدبا مختبراً .

+ لا يقنعك الذى يحضر لك أفكاراً خادعة ويقول لك أنت الآن شاب ويليق بك أن تعيش سنين أخرى كثيرة ، فلهذا افرح الآن وتنعم وهند شيخوختك تتوب ، أما تعرف أيها الأخ الغبي ان العـــدو يطغيك بهذه لأنه إذا كنت وأنت بعد شابا وفى عنفوان حداثتك حين تستطيع أن تصبر على كل تعب وتحتمل كل نسك لا تتوب ، فإن شخت ألا تتعلل بضعف الشيخوخة ؟ . ان اهملت التوبة فى حداثتك ماذا تعمل ؟ اطرح إذن طريقة العدو

واسمع صوت السيد الحقيق القائل : اسهروا إذن وصلوا فإنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة .

احتمال ضعف الضعفاء

+ يا حبيبى احمل الضعيف فإن القوى لا يحتاج إليك لقد كتب ان الأقوياء لا حاجة لهم إلى طبيب بل المرضى ، فأنتم الأقوياء احملوا ضعف الذين لا قوة لهم .

+ إن قوتل أخوك فخرج من الدير وخرجت لتطلبه فإذا وجدته فجاوبه بجاوبة سلامية لئلا تضيف وجعاً على وجع نفسه، مراقباً ذاتك حذراً لئلا تمتحن أنت أيضاً .

+ إن العدو يسلح الإخوة المتوانين كثيراً على الحريصين جداً ، لكن الحريصين يجدون بالمتوانين صناعة مفيدة إذا حملوا أمراضهم من أجل الرب ...

رفض المجد الباطل

+ إذا رأيت إنساناً قد نال رتبة جسيمة على الأرض فلا تعجب من هذا بل تعجب من الذى يبغض الشرف الأرضى .

الاتضاع

+ إذا ظهرت فى أعين اخوتك كالذهب النقى فاحتسب ذاتك مثل إناء لا يحتاج إليه فتفلت من الكبرياء الممقوتة . من الله ومن الناس .

† لايكن وجهك مطرقا إلى أسفل فقط لكن وقلبك أيضاً .

† من يشاء أن يقل صخرة يضع « العتلة » تحتها لا فوقها وحينئذ يدحرجها بسهولة فهذا نموذج التواضع .

† نحن فى يبوسة من البر دائماً لعدم الإنضاع والتأديب، ولا نحسن أن نحرك المقذاف ونحاول أن ندبر . . .

† ان كنت عليلا بأخلاقك لا تصادق المستقيم بفكره . . . ، وان كنت مقتدراً أن تعزى بالرب فتقدم فتجد ثواباً .

عدم الدينونة

† إن أبصرت إنساناً قد أخطأ وشاهدته فى الغد فلا تعتقد به فى ذاتك تخاطىء فإنك لا تعرف إن كان بعد غيابك قد عمل شيئاً صالحاً بعد السقطة وتضرع إلى الرب بزفرات وعبرات مرة واستعطفه ، فلهذا نحتاج أن نبتعد عن أن ندين أحداً .

† لا تسمع أخطـــاء الغرباء لئلا يصير خطؤك مسموعا لدى الكل .

† نج أخاك من الخطية ينجيك الرب فى يوم الرجز (الغضب).

† إذا أبصرت أناساً مخاصمين فقل فى ذاتك ، يانفس هؤلاء قد أدخلوا ذواتهم فى مثل هذا الحرص والخصومة لأجل شىء لا منفعة فيه ، وأنت مدينة بربوات قناطير ، أما تسجدين لله كما

يجب لتنال الصفح . . . ويحتاج كل واحد منا أن يضع ذاته كما أمر القائل: « ان آثامى علت فوق رأسى وعملى مثل وقر (حمل) ثقيل ».

راحة الجسد بقدر

† كافة حطب الغابة لا تشبع النار، والجسد لايشبع نياحا.

تقـــوى الله

† تقوى الرب فردوس النعيم وعديم التقوى ترثه الثعالب .

† المتقى الرب بالحقيقة يصير طبيباً للآلام .

† لتكن خشية الله فى قلبك أيها الحبيب مثل السلاح بيد الجندى

† اتق الرب فيكون لك سوراً وتجد فى يوم وفاتك دالة .

المحبـــة

† كن جزيل المحبة للجميع ولا تخجل من أجل نفسك ، فرب خجل يجلب خطية ، وحياء يجلب شرفا ونعمة ، كن مصالحاً للناس لتؤهل أن تدعى ابن الله .

† إن كنت ذا خبرة بالصناعة الطبية فكن متيقظا كثيراً لئلا بمداواتك آخرين تكون أنت ذاتك متألماً .

† أتشاء أن تحب بمحبة مخلصنا يسوع المسيح، أمقت المحبة البشرية التى تشتمل على هذه الأنواع : نهم البطن ، السكر ، القبائح ،

الحسد والشر، والحزن الجسدى وأمثال هذه التى نهايتها الموت.

التسلح ضد قوات الشر

الرجل المتدرع مرهوب فى الحـــرب واللابس الأمانة مرهوب عند الأعداء الذين لا يرون.

الغضب والحقد

+ غذاء النار الحطب وغذاء الغضب استعلاء الرأى.

+ أتشاء أن تلطف الغضب وتسكنه اتخذ التواضع واسلك فى طريق الودعاء والمتواضعين.

+ فى الرجل المتواضع تستريح روح الحكمة.

+ لا ترقد حاقداً على أحد لئلا تزعجك الخيالات القبيحة فى الليـــل.

الكرامة الحقيقية

+ انظر ألا تشتهى كرامة زائدة فتجلب لذاتك هواناً - كرامة الإنسان بالحقيقة أن يعمل كل شىء كما يشاء الله، واهانة عظيمة مخالفة الوصايا.

معرفة الكتب المقدسة

+ ضلالة الرجل ألا يعرف الكتب ويضل ضلالا مضاعفاً من يعرفها ويتهاون بها.

الترتيل بالروح

+ رتل أيها الحبيب بالروح ورتل بالعقل حتى يمكنك ان تردد مع داود، كلامك فى حلقى أحلى من العسل والشهد فى فمى.

الصبر

+ عز ذاتك واصبر على كل ضيق، لأن الرسول يقول عززوا ذاتكم فى كل يوم ما دام يسمى اليوم لئلا يقسى أحدكم طغيان الخطية لأننا صرنا شركاء المسيح.

+ اصبر على التجارب التى تأتى إليك ليسحق مثل دقيق التراب اعداؤك من قدام وجهك وثق انك لاتنهزم وانت متقلد مثل هذا السلاح.

+ اعمل فى الشتاء لتفرح إذا دخلت إلى ميناء الحياة.

+ إذا رأيت تاجراً قل فى ذاتك يانفسى هذا يشتهى الأشياء الدنيئة فيصبر على جسامة مثل هذه الأتعاب ليجمع الأمور التى لا تبقى، أتوانين أنت فى الأشياء التى لا تزول؟

حفظ الوصايا

+ من يحد عن وصايا المسيح يخنق نفسه ومن يحفظها يحق يرث فرحاً لايوصف.

محبة السلام

العاقل إذا بعث فى خدمة يبذل نفسه من أجـــل السلامة والجاهل الفاقد الأدب يلتهب خصومات .

صلاح النفس

† النفس الخبيثة إذا كرمت تتعاظم وإذا شتمت تغتاظ ، والصالحة إذا كرمت لا تفرح وإذا شتمت لا تسخط .

اقتناء الفوائد الروحية

† إن كانت هدية تعطى أماكنا نسارع قبل الجماعة لنتقبلها؟ فإن كان فى الأمور البشرية حرص مثل هذا فكم أولى بنا أن نحرص فى الفوائد الروحية .

جراحات العالم

† من خلع عقل العالم بالكلية يبقى غير مجروح ومن لم ينزعه يقبل جراحات متواترة .

الحكمـــة

† الشيوخ الحكماء عصمة الإخوة والغير حكماء يكونون محاربين لهم .

† إذا شاهدت الذين يبنون البيوت الأرضية قل فى ذاتك هؤلاء يا نفس إنما يبنون بيوتاً من طين ، فيستعملون الحرص

ليتمموا العمل ، أنتباونين أنت بالمساكن السمائية ، وإن عددنا الأمور واحداً فواحداً فلا نفرغ من القول ، فأى أمر أبصرناه فى العالم من الأفكار العالمية والمقولات الدنيوية فلنستبدله بمعقولات روحانية فتنال منفعة بمؤازرة النعمة إيانا .

التوسط فى فعل الخير

† إن فوض إليك أن تتوسط بشىء فلا تتوان محتجـــاً بالخطايا لأن يوسف قد توسط فى مصر بأمر ولم يقبل الاهتمام بمنزل واحـــد بل بكافة أرض مصر ولم يحنح عن سبيل الحق فلذلك شرفه الله .

الالتصاق بالرب

† العابد يضاهى رجلا تدحرج منحدراً من موضع عال فوجد حبلا معلقاً فى جبل رفيع شاخ فقبض عليه وتعلق به وهو يستخيث بلا فتور بالرب أن يغيثه ، عالمـــاً انه ان أطلق قوته وأرخى كلتا يديه يسقط ويموت . . .

† † †

صلاة للقديس

أيها الرب يسوع المسيح ملك الملوك الذى بيده سلطان الحياة والموت العالم بالمكتومات والخفيات يا من لايخفى عليك رؤية ولا فكر . طهرنى من خفياتى التى صنعتها فإنى قد عملت العمل الخبيث أمامك ، لأن أيامى تفنى يوما فيوما وخطاياى تتكاثر ، فأنت يا رب إله الكل تعرف كثرة ضعف نفسى وجسدى فامنح يا رب لعديم القوة قوة واعضدنى أنا الشقى لأنك أنت تعلم التى قد صرت مثل اية لكثيرين وأنت معينى العزيز . اعطنى يا رب قلباً حسن العزم جميل الحفظ . اذكر أيها الصالح احساناتك كل حين ولا تذكر كثرة خطاياى ولا تحقد على زلاتى ، لا تعرض يارب عن طلبتى أنا الخاطىء لكن كما سترتنى لعمتك حتى الآن فإلى الإنقضاء لا تنزعها عنى لأنها هى حكمتى ومغبوطون الذين يحفظون طرقها فإنها تكون لهم إكليل مجد .

اشكرك واسبحك أنا غير المستحق لأنك صرت لى معيناً وساتراً فليكن اسم عظمتك مباركاً من الآن وإلى الأبد .

† † †

مقتطفات من عظات القديس[1]

١ – فى قهر الشهوة[2]

إصغى إلى ذاتك أيتها الشبيبة المؤثرة النسك لئلا تعبر أيامك فى التنزه ، لاتقبل الأفكار الخبيثة لئلا تضعف قوتك فى حرب العدو . ليكن كل وقت فى ذهنك السيد الحلو ليكل سعى نسكك قد حان اليوم واقترب الوقت الذى فيه العاملون يكللون والمتوانون يندمون ، اقتنى الفضيلة ما دام لك زمان ، اقتنى ورعا فى ناظرك وصدقا فى مسامعك وكلمات حياة فى لسانك ، ليكن فى أعضائك تقويمات العفة لتسكرى بحضرة الملائكة والناس .

إصغ إلى ذاتك أيها الحبيب ان الشهوة مائتة ، أما جسمك فهو حى ، وتأمل إذاً بمبالغة واحذر ألا تمنح جسدك حياة المائت فإن أعطيته حياة يقتلك[3] . فإن المائت إذا أحبيته قتل من منحه الحياة فاعرف بمبالغة ما هى الشهوة . الشهوة خلواً من جسم مائتة فإذا اقترنت الشهوة بالجسم تعيش الشهوة ويدرس الذهن فى حلاوتها ويوجد الجسم الحى مائتاً ... فمن أجل هذا احفظ ذاتك

(١) من مقالات القديس بعد تصحيح وتنقيح عباراتها .

(٢) من المقالة الثالثة عشر وعنوانها الأصلى : « فى الانتباه » .

(٣) قارن رومية ٨ : ٦ – ١٣ .

يتحرز من هذا المائت فى لوقد نار شهوته . احضر إلى ذهنك النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت، ففى الحال يخمد إلتهاب الأعضاء.

لا تتوان فتغلب وتندم ويلحقك العار وتدركك الندامة وتعتاد أن تخطىء وتندم . اقتن صرامة منذ الابتداء مقابل كل شهوة ولا تتغلب لها ولا تعتاد على الهزيمة فى الحرب لأن العادة طبيعة ثانية ، والمعتاد التهاون لا يقتنى قط صرامة وشهامة لأنه كل حين يبنى وينقض ، كل وقت يخطىء ويندم .

أيها الحبيب إذا اعتدت أن تتراخى إذا قوتلت فسيكون تسجيل ندامتك ثابتاً إلى أبد الدهر .

من اعتاد أن يغلب لبعض الشهوات فضميره يصير له كل وقت موبخاً ويكون كل حين حزيناً كئيباً فيرى قدام الناظرين وجهه بورع وفرح ، وهو من داخل مقطب من أجل توبيخ ضميره إياه لأن الشهوة اعتادت أن تمنح الذين يعملونها حزناً موجعاً ، فتحرز بكل نفسك واحذر حاوياً فى ذاتك المسيح كل وقت لأن المسيح هو لنفس ختن لا يموت ...

من لا يبكى لأن العدو يريد أن يفنى قوتنا وزماننا فى نجاساته وشهواته الدنسة لأنه يمقتنا ولا يحبنا قط لكن الله الآب هو الذى يحبنا ، له المجد من الآن وإلى الأبد آمين .

٢ – عظة للمبتدئين فى الجهاد الروحى[1]

أيها الحبيب ها أنذا أعاهدك بالرب عهداً جديداً فإن حفظته سيمنحك الرب أخيراً سروراً . بكل تواضع العقل لا تجزع من المحن وتحارب العدو بل اصبر لتنال التطويب لأنه كتب الطوبى للرجل الذى يصبر على المحنة فإنه إذا صار مزكى ينال الإكليل الذى وعد به الرب الذين يحبونه ... (يع ص ١ : ١٢) .

كل ضيقة سيرة العبادة كن يخسر درهما مقابل كسبه ربوات قناطير ذهب، كذلك الضيق الحاضر إزاء الحياة المستأنفة الأبدية فأشياء قليلة تعطى وأمجاد كثيرة تأخذ . تيقظ الآن يا حبيبى مثل جندى شجاع . . . إحذر ألم النوم الذى لا يشبع منه فهو يضاهى شره البطن لأنه ان تعوّد أحـــد أن يأكل كثيراً تطالبه المعدة بأغذية كثيرة ، وان اعتاد المسك فلا تطالبه الطبيعة أن يأكل كثيراً ، ردد التفكير فى الصيادين انهم يكملون كل الليل ساهرين ويتوقعون الصيد فإن ثقل أحدهم بالنوم لحينئذ يندم ويرجع إلى منزله فارغاً .

يا أحبائى فلنصر مثل جنود شجعان مستعدين أن نموت عن

(١) عن المقالة التاسعة والثلاثين والعنوان الأصلى للمقالة « مظلة للمبتدئين بسيرة العبادة » .

ملكنا لأننا حينما نشغل فى العالم وتتقلب فى الأمور الارضية لا تصيبنا هذه الشدائد ولا تدهمنا الغموم ،ولكن حينما نعزم أن نرضى الرب بحرارة ، ينهض علينا الشرير هذه المحن والاحزان والهياج. أرأيت أننا من أجل الرب تصيبنا هذه لأن العدو يحسدنا ويروم أن يردنا عن طريق الحياة ويقتادنا إلى السآمة والملل لئلا إذا أرضينا الرب نخلص، فهما أثار الخبيث من هذه الأشياء علينا ووجدنا شجعاناً فى الصبر فسنحل كافة حيله لأن السيد المسيح مؤازر لنا ومحارب عنا فهو يمنحنا الصبر إذا توكلنا عليه ، فلنصر مثل سندان يضرب فلا يتألم ولا تقبل فى ذاتنا أثراً واحداً من الاسترعاء أو من السآمة أو من الضجر فى الجلدات والمحن . . . وإذا ضربنا فلنغلب المصارع بالصبر فإن ربنا هكذا جال فى هذا الدهر مجلوداً معيراً مبصوقاً عليه .. ، وأخيراً احتمل من الأثمة موت الصليب ، فاحتمل سائر الأشياء من أجل خلاصنا تاركاً لنا مثالا لنقتفى خطواته . . . داس الخطية بالجسد وحطم قوى المضاد كما كتب انه جرد الرئاسات والسلاطين وفضحهم على الصليب ، هكذا نحن إذا صبرنا على كل شغب وحزن وارد إلينا من الخبيث بشهامة ونشاط نغلب المضاد بالأمانة والصبر والرجاء فى المسيح وهكذا نوجد مؤدبين هنا . . . ونمتلىء قداسة الروح

ونصير وارثين الحياة الأبدية التى هناك . . . فإذا تألمنا ومتنا من أجل الرب نغلب بنشاط كل قوى المعاند ولا نحسب كل حزن وكل محنة انها مؤلمة موجعة بل تكون شهوتنا موجهة إلى الرب . . . فاحتملوا كل التجارب بصبر . كما قيل كل يوم نحمل صليبه الذى هو الموت ونتتبع أثره فهكذا نحتمل بسهولة كل غم إما مكتوما وإما ظاهراً **لاننا ان كنا نرجو ان نصبر من اجل الرب على الموت ونتوق ان يكون لنا قدام اعيننا كل حين فكيف لا نصبر بفرح على المحن** مهما كانت ثقيلة تداهمنا بحجة وبلاحجة . اننا نحتسب الغموم ثقيلة ولا صبر لنا عليها لأنه ليس قدام أعيننا الموت ولا يتوق إليه ذهننا كل حين ، **لانه من يشتهى ان يرث مع المسيح يؤثر بلا مراء التالم** ، فالذين يحبون المسيح يظهرون بهذا إذا صبروا على كل حزن بشهامة ونشاط من أجل الرجاء بالله .

فلنتضرع الآن إلى الرب أن يعطينا فهماً أن نعرف مشيئته ونكملها بنشاط بكل صبر وتمهل وسرور ... لنوجد مستحقين الخلاص الابدى بالمسيح يسوع ربنا الذى له المجد إلى الأبد آمين.

† † †

٣ – الاقتداء بالقديسين والتناء فضائلهم (١)

... أشير عليك أيها الأخ إذ لك نية أن تخلص وليست لك خبرة بالسيرة ذات الفضيلة أن تقتنى آثار الآباء والإخوة الكاملين وتستفيد منهم كيف ينبغى لعبد الله أن يتصرف ، الأمر الذى كنت أقوله لك دائماً أن تعاين سيرة كل واحد منهم وتتشبه بتدبيره ، متفطناً فى كيف أن كل واحد منهم متدرع بالسلاح فى الدين البهى منقاد إلى رأى الدعوة العليا . . . تترقب من واحد أمانته الكاملة التى لاتتزعزع وآخر اتكاله على الله ، وآخر تقشفه منه المحبة المضاعفة لله والقريب ، وكيف أحدهم بمخافة الله يقى نفسه محفوظاً من كل أمر خبيث ذى سيرة حية لا زال ولا لوم فيها . . . وآخر ممدوح من الكل من أجل طهارة سيرته وتنزيهها من العيب لأن كثيرين يوجدون مثل هؤلاء الذين عنهم كنت أقول لك اصغ إلى أولئك ، لا إلى المتوانين . . . صر مشابهاً الذين هم بيننا كالنجوم لترى كيف أن أحدهم عندما يحارب من الخبيث بآلام متنوعة فإنه يهرب إلى الله بالصلاة ويلتصق به بالتخشع والشوق فيأخذ معونة النعمة ويغلب الأفكار القبيحة ، وآخر يتوب عما عمله من الزلات ببكاء غزير وعبرات وزفرات ناتجاً باكتئاب على خطاياه معترفاً لله فى الصلوات والأسهار ، يشق بالصوم والتعب

(١) من المقالة السادسة والثلاثين وعنوانها الأصلى « أنواع الفضائل »

والنوم على الأرض والاغتمام ، يجتهد أن يخلص نفسه بهذه الأسلحة . جاهد أنت محارباً إلى الموت بجندى حقيق لأن النسك يا ولدى ليس هو لعباً بل بتحرز كثير يقوم خلاص النفس . . .

اعلم أيها الحبيب ان الإنسان ان صلى بشوق ودموع بقلب نقى يعاين الإله نفسه بذهنه ، فلذلك كل أحد يحصل بالمسكنة وبالفقر وبالضيقة الكثيرة لنفسه الخيرات الموعود بها للصديقين ، لأن الباب ضيق والطريق كرب المؤدى إلى الحياة . لذلك أريتك هذه الطريق التى لم أسر فيها أنا ، حتى إذا انتبهت إلى ذاتك تماثل سيرة القديسين فتضاهى ورع أحدهم وصناعة آخر ، وتماثل صلوات ثالث وتتقبه بصفات رابع وتشابه تواضع خامس . . . وهكذا ، وما دام هؤلاء النجوم يضيئون أمام عينيك كل يوم وليلة فاسلك فى ضيائهم واقتف آثارهم لتدخل معهم إلى المساكن الأبدية .

منطق حقويك وقد مصباح عدلك وانتظر ربك لتوجد مستعداً لإستقباله .

انتصب كشجرة حسنة ثمارها حاملة أثمار الفضائل واحذر أن تجىء دودة الكبرياء فتفسد أثمار تواضعك . لايسرق الكذب صدقك ولا يغش السبح الباطل تورعك ، ولا يسلب الغضب طول أناتك ، ولاتفسد الخصومة سلامتك ، ولاتعوق المعاداة عصادقتك ، ولا يقطع الحقد المحبة . . .

لا تكرم محبة الفضة أكثر من محبة القنية ولا تحب والديك أكثر من المسيح ، ولا تسر بالعالم أكثر من ملك السموات ، لا يبدد عظامك استرضاء الناس ... لا يسحبك حب اللذة من محبة الله ، لا تعمى الشهوة تخشعك ، لا تشوه اللذة شوقك إلى الله ، لا تخسرك لذة الأطعمة نعيم الفردوس ...

لا ترفض إنساناً لئلا تسخط خالقه ، لا تميزن أحداً لأنك لا تعلم ماذا يصيبك من العوارض ، لا ترتفع بقلبك لكيلا تسقط فتجلب لذاتك هواناً ...

وحيث أن العدو لا يكف مقاتلا نهاراً وليلا فاحذر أن يجد عقلك مشاغلا عن تلاوة وصـــايا الله فيزرع زوانه ويجعل الأواخر شراً من الأوائل ...

لا تجنح يميناً ولا يساراً أى لا تجنح إلى الآلام السابق ذكرها حتى لا تسقط فى هوة الخطية وتموت بالنفس بل بادر فى طريق وصايا الله الملوكى مقوماً سعيك إلى الملك السمائى وصل عنى أنا الخاطىء [1] .

(١) هذه العبارة «صل عنى أنا الخاطىء» وردت فى مقالته ولذلك تبنيها القديس لفارثيه وهو حى ، تواضعا منه ، ونحن الآن محتاجون إلى شفاعاته المقدســة .

٤ – فى الصبر والثبات أمام التجارب [1]

من يؤثر أن يرضى الله ويصير وارثه بالأمانة ويسمى إبن الله ومولوداً من الروح القدس فليتمسك قبل كل شىء بالصبر وطول الروح ويجب عليه أن يحتمل بشهامة الغموم والضيقات والشدائد التى تدهمه، إما أمراض وآلام جسدانية وإما تعييرات الناس ، وإما الغموم الواردة إلى النفس من أرواح الشر لتعيقها عن الدخول إلى الحياة مريدة أن تقتادها إلى الاسترخاء وصغر النفس وعدم الصبر... فسبيل النفس الثابتة قول الرب أن تحمل الصليب كل يوم ... تأمل وابصر كيف أن الآباء منذ القديم رؤساء الآباء والأنبياء والرسل والشهداء عبروا فى طريق الغموم والمحن فاستطاعوا بذلك أن يرضوا الله كل حين ، احتملوا كل محنة وحزن بشهامة وسروا بالضيقات لأنهم انتظروا الثواب كما يقول الكتاب يا ولدى ان تقدمت لتخدم الرب فأعد نفسك للمحنة [2] ، قوّم قلبك واصبر ... فكل نفس تؤثر أن ترضى الله فلتتمسك بشهامة بالصبر وبالرجاء وهكذا تستطيع أن تنجو من حزن العدو ... ، لأنه ليس كما يؤثر الخبيث يمتحن النفس

(١) عن المقالة الثانية والثلاثين وعنوانها الأصلى «فى الصبر والتخشع» .
(٢) أنظر يشوع بن سيراخ .

ويحزنها بل بمقدار ما يسمح له الله لتحتمل النفس بشهامة ولتتمسك بالرجاء بأمانة منتظرة المعونة ممن له النصر الذى لايمكن أن يهملها لأنه بمقدار ما تجاهد بالأمانة والرجاء والصبر ملتجئة إلى الله منتظرة العون منه والخلاص بلا ارتياب يتجيها الرب بسرعة من كل ضيق ، لأنه يعلم كم تقدر النفس أن تحتمل من الاختبار والامتحان، وبقدر ذلك يسمح أن تجرب فإذا احتملت صابرة إلى الغاية فلا تخزى كما كتب أن الحزن يصنع صبراً والصبر تدربا والدربة والخبرة رجاء والرجاء لايخزى ، وأيضاً كما يليق بخدام الله بالصبر الجزيل بالأحزان وبالشدائد والضيقات .

ان الناس ذوى الفهم والعقل اليسير يعرفون أن يختبروا ويميزوا كم ثقل يستطيع أن يحمله كل حيوان ، وعلى حسب ذلك يحملونه ، والفاخورى إذا جبل الأوانى وأحكمها إن لم يدخلها الأتون لتحمى وتيبس فلا تصلح لاستعمال الناس ويعلم أيضاً كم يحتاج أن يتركها فى النار حتى تستوى ولا يتركها فيها بمقدار أكثر من الواجب لئلا تحترق وتتلف ، ولا يتركها أقل من ذلك لئلا تكون غير نافعة ، فإن كان الناس فى الأشياء البالية والظاهرة اقتنوا قدراً كهذا من التمييز والمعرفة فكم أولى بالله الذى لم يزل فى علمه غير مدرك وفى فهمه لايقاس ، وهو ذو كل

حكمة يعلم كم تحتاج النفس التى تؤثر أن ترضيه وتشتاق أن تنال الحياة الأبدية من الامتحان والتجارب والصبر بشهامة ونشاط ورجاء على كل حزن إلى التمام وحينئذ تصير مختبرة وموافقة لملك السموات . ان القنب لا يصلح أن يصير منه غزل دقيق ان لم يدق ويمشط كثيراً ، وبمقدار ما يدق ويمشط يصير نقياً مبيضاً موافقاً للعمل، هكذا النفس التى تحب الله الداخلة فى محن وتجارب كثيرة الصابرة على الأحزان بشهامة تصير مهذبة ظاهرة وجزيلة الفطنة فى الروحيات ذات صناعة دقيقة وتؤهل أن ترث المملكة السمائية ، ومثل الإناء الجديد اختراعه ان لم يلق فى النار فلا يصلح لاستعمال الناس ، أو كالطفل مادام طفلا لايصلح لأعمال العالم فلا يبنى مدناً ولايقدر أن يغرس غروساً ويلق بذراً ولا يكمل عملا آخراً من أعمال العالم، هكذا النفوس التى تهرب لحلاوة راحة الجسد تكون مشابهة الأطفال لكونها لم تختبر بتجارب مختلفة وأحزان من الأرواح الخبيثة. التجارب التى بها يظهر الصبر.

ان النفوس التى تدفع إلى الأحزان لتمتحن من أرواح الخبث تعذب عذاباً ظاهراً وغير ظاهر. .. فإذا صبرت بشهامة متمسكة بالرجاء منتظرة عطية الجزاء من الرب تؤهل لأكاليل العدل وتجد تلك الدالة ، دالة الشهداء بنعمة الله فى يوم الدينونة لأن شهامة

الأحزان التي تكبدها أولئك بالصليب ، هؤلاء احتملوها من أرواح الخبث ... وبمقدار ما احتملوا أحزاناً من مقاومات الخبيث وتمسكوا بالرجاء إلى النهاية يكون لهم عند الله مجد أعظم ويؤهلون لتعزية الروح القدس ويرثون هناك الخيرات الأبدية.

أما الذين يهربون بسبب الجزع والخوف ولا يحتملون الأحزان بل يستسلمون إلى السآمة وعدم الصبر وقطع الرجاء ويرجعون عن الطريق الصعبة ولا ينتظرون رحمة الرب فهؤلاء يوجدون غير مختبرين ومرفوضين ، فكيف يمكنهم أن ينالوا الحياة الأبدية لأن كل نفس مضطرة من أجل المسيح الذي مات من أجلنا أن تطيل أناتها وتصبر وتحفظ التوكل عليه ...

فإذ قد عرفنا هذه الأشياء يا أحبائي فلا نرقد في خلاصنا الذي نناله بالصبر على التجارب المطبقة بنا ، وإله الرجاء يثبتنا في التمسك بالوصايا وله يليق المجد إلى أبد الدهور .

ان الله الذي جبلنا إذ عرف ضعف ذهننا وسوء صناعة مضادنا منحنا الكتب الإلهية ككنوز شفاء وخزائن أسلحة توجد فيها أسلحة مختلفة أنواعها ، لأن داود يقول لقد جعلت ساعدي قوساً نحاساً ، وأيضاً أرسل نبله فشتتهم وأكثر برقه فأقلقهم ... أليشع النبي يقول لا تخف فإن الذين معنا أكثر من الذين معهم ،

وابتهل اليشع وقال يا رب افتح عيني الصبي ليبصر ففتح الرب ناظريه وأبصر ، وإذا الجبل كله مملوء خيلاً ومركبة نارية محدقة باليشع ... وقال حزقيال وأنت يا إبن الإنسان خذ لك سيفاً مرهفاً... وافتته لك، والرسول يعلمنا أن نلبس سلاح الله الكامل لكي نقدر أن نقاوم سهام العدو الملتهبة، فإذا رشقنا العدو ندحج ذاتنا بالأسلحة الروحية لأن أسلحتنا ليست بشرية بل مقتدرة بالله ، محاربتنا ليست مع لحم ودم بل مع أرواح الشر من أجل السمائيات ، فهذه الكنوز يوجد فيها أدوية وافرة ومختلفة أنواعها ، حتى إن قارم أحد العدو وجرح يبادر بسرعة إلى كنز الشفاء ويضع على الجرح مرهم التوبة ويصير صحيحاً ...

وبما أن صغر النفس هو سهم العدو الذي جرح به كثيرين وطرحهم فلنأخذ الصبر سلاحاً على صغر النفس مكررين في ذاتنا القول المكتوب ، تشجع وليتأيد قلبك واصطبر للرب فتتأيد النفس من القول وتستطيع أن تحتمل بسهولة النوائب المتهافتة عليها من العدو وتستريح كأنها متكئة على عصا أو كمحمولة على مركبة ... فلنتذكر هذا الفصل مخاطبين به أنفسنا بعضنا بعضاً ، « تشجع وليتأيد قلبك وانتظر الرب » فإن هذا القول يوافقنا جداً ، إن صمنا إن سهرنا إن صلينا إن عملنا شيئاً آخر لأنه ينهض النقاط لإتمام الفضيلة ...

جاهد مادمت تجد وقتاً ... ارفض الجسد والسبح الباطل امقت العادة الرديئة والوقيعة فإنه عما قريب تنصرف من هنا فمالك وللغيرة المرة والحسد والمعاداة للقريب، وبعد قليل ستصير رماداً وتراباً، حب التخمع يتجيك من أتعاب كثيرة ... إبك إذاً صليت لتجد نياحاً حيث أنت عتيد أن تمضى. إهتم بالعمل كما يليق بحكيم وفهيم، فإن الوقاحة والضحك لا ينفعانك فى يوم الوفاة بل ولا ألفاظ المزاح والخلاعة فهذه تمكث دائماً فى قلب الجهال إحذر من الرياء الكاذب ... إن دنس الجسد ليس فيه شىء سوى اليأس والنار التى لا تطفأ، والطهارة تسبب فى هذا الدهر مديحاً وفخراً وفى العتيد تعطى إكليلا لا يذبل.

أيها الأخ إن جسمك هيكل للروح القدس الساكن فيك فاهتم بالهيكل لئلا تحزن الساكن فيك... إن كنت لا تقهر جسدك تكون شبه من يشاء أن ينتصر فى حرب بلا قتال ولا تعب، وكأننا نعطى الذين يحاربوننا نبلا برقادنا وعدم تحفظنا واهمالنا حراسة أبواب النفس فنصير بذلك معتالين خلاصنا مانحين للعاديين مدخلا كما إذا طمحنا بأعيننا بلا خجل متفرسين فى الأشياء التى لا يجب معاينتها ...

كيف يمكن أن نمنع الدخان من الدخول الى باطننا وأبواب

حواسنا مفتوحة إزاء الذين يوقدون النار بجانبنا بلا انقطاع. ان كرهت الدخان فاحفظ الأبواب، سد نوافذ أبواب المنزل لئلا يضر جسمك من البرد ومن الدخان ...

البيت الذى هو من حجارة وطين وخشب ليتدفأ به الجسم تهتم به بحرص **والمنزل الذى هو افضل من ذلك الا تهتم به ؟**

خزى عظيم وقضية صارمة تقع على من أفسد هيكل الرب إن لم يستعد بالتوبة للصفح ويغسل الأوساخ بدموعه، فلتبغض السبح الباطل والضجر والغضب وأنواع الشر التى لا ثمر لها.

كل كل يوم انجيز الذى تعطيه حكمة الله واشرب الماء النابع من الصخرة الروحانية لينمو عقلك باستنارة الفهم ...

لِمَ تمتشح أيها الإنسان بالحلة البهية لأنه إذا لبس أحد حلة جزيل ثمنها يلبسها فى النهار فإذا أدركه الليل يخلعها ثم ينعطف إلى النوم ...

† † †

٥ – وفاء النفس (١)

... تذكرت مجيء المسيح المرهوب فاضطربت عظامي وانقطعت قوة نفسي مع جسمي وبكيت بوجيع قلب وقلت بزفرات : « كيف أوجد أنا الخاطىء في تلك الساعة الرهيبة ، كيف أمثل بحضرة مجلس القاضي المرهوب ، كيف أوجد أنا المتهاون مع الكاملين أم كيف أقف أنا – الذي من بين الجداء – مع الخراف عن يمين المسيح أم كيف أوجد أنا الغير مثمر مع القديسين العاملين هنا ثمر العدل ، وإذا عرف القديسون بعضهم البعض في اليوم الرهيب ماذا أصنع أنا ؟ ترى من يعرفني هل الصديقون في الخدر أو المنافقون في النار؟ يرى الشهداء عذاباتهم والنساك فضائلهم فماذا أظهر سوى رخاوة ليتي ... » .

« أيتها النفس المتراخية ، يا نفسي الخاطئة ، أيتها النفس التي لاحياء لها ، أيتها النفس المنافقة ... ، إلى متى تجذبك الهموم على الأرض ، إلى متى تحرك سوء عادة الأفكار الخبيثة ، أما قد علمت أن الأفكار الخبيثة في كل ساعة تصير كسحابة مظلمة قدامك وتحجزك عن أن تقتني لدى الله . انت تتوقعين بوفور

(١) من المقالة الرابعة عشر .

توانيك أن الختن السماوي سيبطيء في مجيئه ، لايبطيء بالشقية بل كبرق يكون وروده من السماء ، احرص أن توجدي مستعدة في تلك الساعة المخيفة لكي لا تبكين هناك إلى أبد الدهر . لا تصغي بالكلية إلى هفوات آخرين بل انتحي على زلاتك ، لا تنظري إلى القذى في عين الأخ والقريب بل تأملي الجزع في نظرك تأملا متواتراً ، إن امكنك أن تنزعي أولا الجذع من عينيك فأخرجي قذى الأخ والقريب ، وان لم يمكنك فتوحي على ظلمتك المستعصية ، كيف تظنين انك تمنحين القريب نوراً ؟ ، كوني يا نفسي طيبة لذاتك كل ساعة ثم بعد ذلك اشف اخاك السقيم فليست لك حجة عن توانيك لأن الإله الرحوم قد أعطاك كل المواهب ، تمييزاً وفهماً ومعرفة روحية ... » .

بكى عند ذلك الأخوان القذان معي وقالا لم تبك أيها الآب بكثرة نحيب ؟ فقلت لهما يا ولدي المحبوبين ، نعم انني انوح على ذاتي من أجل تهاوني ، لأن الإله الصالح قد أعطانا استنارة العلم وأنا أخالفه يوما فيوما . إنني إن أكملت مشيئات الرب أكون في تلك الساعة مغبوطاً ولست وحدي بل والذين يعملون مسراته . من أجل هذا يا إخوتي لا معذرة لنا هناك البتة ، لاننا نخطىء بمعرفة ، فلنتأمل تدبير الله في كافة المواهب التي أعطانا إياها ، فنعمته

تتعهد قلوبنا دائماً ، لعلى تجد راحة لها تدخل وتسكن فى النفس وإن لم تجد القلب نقياً نظيفاً تبتعد عنه ، ثم تضطرها رأفتها أن تتعهد الخاطئين ... فإذا جاءت النعمة تفتقدنا تجد فى قلوبنا تلك الأفكار الشريرة فتتنحى وتبتعد إذ لا تجد مدخلا للسكن فينا كما تريد سوى أنها توخز القلب بلطف وتلقى فيه بشعاع من نور ليحس بأنها تعهدته ولم تجد لها مدخلا لكى إذا تحلى الإنسان بالأنوار صار يطلبها ، ومع هذا فهذه النعمة لا يمكنها أن تبتعد منا بالجملة لأن تحننها يلزمها ويضطرها أن ترحم الكل .

أرأيت تدبير الله السابق، أرأيت تحنن المسيح الإله القدوس كيف يحبنا دائماً مريداً أن يخلصنا. مغبوط الإنسان الذى يحرص كل وقت أن يعد قلبه نقياً نظيفاً للنعمة ، لكيما إذا جاءت تجد فيه طيب نسيم الفضائل وطهارة النفس فتسكن فيه إلى أبد الدهر. فإذا تعطى الإله المتحنن عن كافة خيراته ومواهبه ، إذ نزل من السماء من لدن الآب وتجسد من أجلنا ، ومن أجلنا لطم مثل عبد فإذا نقضى عن اللطمة وحدها ؟ إن عشنا على الأرض ألف سنة لا نستطيع أن نفى الله كما يجب له مجازاة نعمته .

إنى أخشى من هذا يا أبناءى المحبوبين لأننى أعرف تهاونى وأخاف من أن يكون كافة الناظرين إلى ومطوبى ورعى

الكاذب يصفقون علىّ هناك إذا أبصرونى متحرقاً فى النار !!!

إرث يارب أيها المتحنن المسيح المخلص لعبدك العاطل امثلا أرجد هناك قدام المنبر واقفاً بخوف وخزى عظيم وأكون عاراً للملائكة والناس ـ أدبنى هنا يا مخلصى كما يليق بالآب المتحنن المحب لولده ، بما أنك أنت الإله السماوى الغير خاطىء وحدك، فإنك ان لم تيقظ الشوق وتعطيه استنارة قلب ليتوب بلا خجل عن خطاياه فماذا يصنع هناك ... ؟

† † †

صلاة للقديس

... يقم دنس أتوسل إليك أيها القدوس الطاهر النقى، من قلب خبيث وفاجر كل يوم، وأرسل إليك زفرات فإن العدو قد جذبنى إلى دراسة الأفكار الخبيثة وأخجل أن أرفع نظرى إلى السماء لأنه قد صار لى خزى عظيم وعار من كثرة آثامى، فاتضرع إلى صلاحك أن ترثى لى بما أنك متحنن، اطرد من ذهنى المفسد الغاش واجعلنى خالصاً قبل الموت من حظ المنافقين. يارب اذكرنى برحمتك ورأفاتك واصغ بسمعك إلى طلبة عبدك لئلا أدان مع المستكبرين، لا تطرحنى من تجاه عينيك لئلا أصير نصيبا للهلاك ولا تغرقنى فى اللجة، لا تحبسنى فى مطابق الهاوية لئلا تفرش تحتى النار وأكون مسكناً للدود، لا تحبسنى فى الظلمة الأبدية تحت أساس الجبال مقيداً بقيود أبدية، ولا تدفعنى إلى يد ملائكة غير راحمين، لا تحرقنى فى نار لا تطفأ، اذكرنى يارب وخلصنى أيها القدوس المستريح فى القديسين، أنت قلت يارب اسألوا تعطوا، انى أطلب رحمة ورأفة لأنك قد منحت الكل طلباتهم بسعة ولم تعير أحداً. أيها الرب الضابط الكل أنت لم تزل صالحاً ولا زلت للناس رحوما، لذلك امنحنا يا رب أن نجد دالة أمام مجدك.

فليتمجد بنا اسمك، وليقبلنا الصديقون بسرور فى المساكن الدهرية منقذين من أيدى المنافقين المتكبرين.

من ذا يسمع القول المرهوب فيصمت عن الهتاف إليك كل ساعة لأن الكتاب المقدس يقول ان كان الصديق بالجهد يخلص فالمنافق والخاطىء أين يظهران؟ أما نحن فتوكلون على رأفاتك نصرخ متضرعين أن ننجو من النار التى لا تخمد ومن الخوف العتيد.

فلتأخذنا يا رب نعمتك وتعبرنا بلا خوف تلك الهاوية العظيمة الرهيبة التى جعلت بين الصديقين والظالمين حتى إذا نجونا نقول المجد للآب الذى نجانا من النار التى لا تخمد والدود المؤبد وأهلنا أن نصير وارثى أورشليم السمائية، المجد للروح القدس الذى نجانا من أسر الخطايا ومن الجزى الأبدى وكللنا بابتهاج فى النور الصادق إلى أبد الدهور آمين.

† † †

كل نسك ، كل تقشف ، كل طاعة ، كل فقر اختيارى ، كل غزارة العلم باطلة إذا كان ينقصها تواضع الرأى. فكما أن ابتداء الصالحات وكلها هو التواضع هكذا ابتداء الشرور ونهايتها هو شموخ الرأى . وهذا الروح النجس مختلف الأنواع كثير الصور فلهذا يجتهد أن يتسلط على الكل ، فأى قدرة أو مهـــارة من المهارات ينصب فيها نفسه ، فالحكيم يتكبر بحكمته والقوى بالقوة والغنى بثروته والحسن الوجه بجماله ، الدرب المنطق بالكلام ، الطيب النغمة بحسن صوته ، الحاذق فى الصنعة بحذاقة الصنعة ، الجميل التصرف بحسن تصرفه وكذلك لا يفتر عن تجـــربة الروحانيين فالطائع يمتحنه بالطاعة فيتعظم بطاعته والمتقشف بتقشفه والصامت بصمته والعديم القنية بهجره إياها والمتورع بحسن الورع والعالم بالعلم. فالمعرفة الحقيقية إنما هى تلك المقترنة بالتواضع ، ولهذا يحرص أن يزرع فى الكل الزوان الذى له... فلذلك لما عرف الرب هذا الألم أنه أينما تأصل يطوح ذلك الإنسان مع العمل الذى له ، أعطانا ضده التواضع سلاحا قائلا: إذا عملتم كل البر قولوا أننا عبيد بطالون ...

(١) من المقالة الثالثة بعد تصحيح وتنقيح عباراتها .

والرسول يقول : « ان كان أحد يظن أنه يعرف شيئاً فإنه لم يعرف شيئاً بعد كما يجب أن يعرف ولكن ان كان أحد يحب الله فهذا معروف عنده » رو ٨ : ٢ ، ٣ . فلم نخدع ذواتنا ونترفع بعضنا على بعض ، فإن كنا شرفاء فى العالم ونحتقر الادنياء فإننا نجد الرب يعلم أن الحظوظ السامية عند الناس مرفوضة عند الله وان كنا مسكين فنتعالى على الضعفاء فإن الرسول يوبخنا قائلا : « ليس من يمدح نفسه هو المزكى بل من يمدحه الرب »(١) ، وان كنا نتعب فى الخدمة أكثر فنستعظم برأينا على الصامتين فإننا نجد الرب يمدح مريم أكثر لانها اختارت النصيب الصالح ، وان كنا صامتين فنترفع على المتعبين فى الخدمة فإننا نرى الرب يعلم أيضاً قائلا : « ما جئت لأخدم بل لأخـــدم وأبذل نفسى فدية عن كثيرين لكى فى كل أمر ينبغى أن نقصى استعلاء الرأى ، وإن كنا نجلس فى مكان هادىء ونقشاخ ، فاذا ينفعنا ذلكم المكان ان لم نعمل بتواضع فإن الرسول يقول غير ناظرين إلى الأشياء التى ترى لأنها وقتية ، أما التى لا ترى فأبدية ... فالامر الذى اخترته لذاتك لتقويم الفضيلة لا تجعله بحيث يسبب لك سقطة الكبرياء ...

(١) رو ١٠ : ١٨ .

ان كنت غنياً فإنك لم تبلغ غنى ابراهيم الذى جعل ذاته ترابا ورماداً ، وإن كان فوض إليك الاهتمام بالشعب فموسى قد تقلد الزعامة ليس برئاسة شعب عدده ألف لحسب بل شعوب كثيرة، لأنه بعد أن ضرب الله مصر بيد موسى وهرون وجفت مياه البحر الأحمر وسّير اسرائيل فى وسط أليم وعبروا تلك البرية المرعبة فأقبلوا قرب تخوم أهل موآب فأبصر أهل موآب كثرة الشعب كما كتب ان موآب قال لقبائل مديان أن هذا الجمع يبتلع كافة الأشياء التى حولنا كما يلتهم الحيوان النبات الأخضر من الأرض ... فكان عددهم ٦٠٣٥٥٠ رجلا ، وكل هؤلاء كان هو رئيساً عليهم وصار مناجياً له ومعايناً مجد الرب فلم يترفع قلبه ولا توانى فى التواضع ، فقد شهد عنه الكتاب المقدس قائلا ، موسى كان وديعاً جداً أكثر من كافة الناس الموجـــودين على الأرض ، وإن كنت قوة وبأس وعليك التاج موضوعا فإنك لم تبلغ عظمة داود الملك الذى وضع ذاته قائلا أنا دودة ولست إنساناً ، وان كانت لك معرفة وحكمة ونسك فإنك لم تبلغ حدود الثلاثة فتية ودانيال وأحدهم قال يارب أنت هو العدل ونحن فلنا خزى الوجوه إلى هذا اليوم ، وأما الثلاثة فتيـة فابتهلوا بنفس منسحقة وروح متواضع .

فإن كان الصديقون أوضحوا مثل هذا التواضع فكم يجب أن نكون نحن الخطاة أكثر تواضعاً لأن من يترفع ويعظم رأيه فذاك هو السالك بالجسد كما يقول الرسول ان كنتم تعيشون بالجسد فستموتون وان كنتم تميتون بالروح أعمـــال الجسد فستعيشون ...

أما قد سمعتم كم من مصاعب احتملها الرسول بولس من الأمانة لأنه كتب إلى أهل كورنثوس يقول فى الاتعاب أكثر فى الضربات أوفر، فى السجون أكثر ، فى الميتات مراراً كثيرة، من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة ، ثلاث مرات ضربت بالعصى ، مرة رجمت ، ثلاث مرات انكسرت بى السفينة ليلا ونهاراً قضيت فى العمق ، بأسفار مراراً كثيرة بأخطار سيول ، بأخطار لصوص ، بأخطار من جنسى، بأخطار من الأمم ، بأخطار فى المدينة ... ٢ كو ص ١١: ٢٣ - ٢٨ .

أترانا نستطيع أن نفتح فمنا ، أنظر إلى فضله بعد مصاعب هذا مقدارها وبعد الاتعاب هذه كيف اتضع وقال أيها الإخوة أنا ما احتسب ذاتى انى قد أخـذت شيئاً ، قال ذلك ليدحض أفكار القشائح ... لأن من يقتشائح يشبه من يسّير الله بفضائله ، وكذا الحال فى الأمور البشرية فمن أعطى قريبه عطية وتشاغ

عليه فقد فقد صلاته ونقض صداقة قريبه ، ومن هو هكذا فهو مرذول .

فلأجل هذا أراد الرب الملهم بحياتنا أن يجعلنا غرباء عن هذا الألم المفسد قائلا: « إذا صنعتم كل البر فقولوا إنا عبيد بطالون».

ولنعلم أن الرب ما علمنا أن نتواضع باللفظ فقط بل أن نتواضع بالفعل إذ اتزر بمئزر وغسل أرجل تلاميذه وقال تعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم . . .

إذا رافقتك أفكار العدو الأولى فأحرى بك أن تقول لذاتك أنت من أنت ؟ إلى أى الحدود وصلت ؟ أأنت ايليا ؟ أتراك صنعت عجائب مثل ذاك ؟ فإنه بصلاته أغلق السماء فلم تمطر مدة ثلاث سنين وستة أشهر ثم بصلاته أيضاً أعطت السماء مطراً ، وبصلاته أيضاً أحدر من السماء ثلاث مرات ناراً . وان كنت إقتنيت الأمانة كلها فأرنا المعجزات والآيات ، أقم بصلاتك للموتى وأفتح أعين عميان ، أطرد الشياطين . . . لأنه صادق هو القائل ، الحق أقول لكم ان من يؤمن بى يعمل الاعمال التى صنعتها أنا وأعظم منها يعمل ، لكن ربما أحدنا يقول ، فإن لم يعمل أحد تلك الأعمال اللائقة بالله أفلا رجاء له للخلاص ؟. أجل لنا رجاء الخلاص ان اعترفنا بضعفنا وقلة أمانتنا وإن لم

نعمل هذا ، لأن الضعيف إنما يلتمس رحمة لا تعظماً ، فإن كنا محتاجين إلى الرحمة وإياها نطلب فنحتاج إلى الإتضاع ، نجتذب بالتواضع الرأفات إلينا من الله لأنه قد كنت أنه فى تواضعنا ذكرنا الرب وخلصنا من أعدائنا ، وأيضاً ، اتضعت خلصنى وإن كنا نستند على الرياح ونعظم رأينا فلسنا صانعين شيئاً آخر إلا أن نزج بذواتنا فى الهاوية . فلا تقبلن مرض الكبرياء لئلا يسرقك العدو بغتة . أفق من تسامى فكر الاعتداد بالذات ، ولا تلف شبكة على رجليك ، إغسل بالتواضع ذهنك ونظفه من هذا السم القاتل ، ليؤديك رسم الذى يكنس بيته كيف ينحنى إلى الأرض وينظفه ، فكم تحتاج بأكثر أن تنحنى باهتمام كبير وتتضع من أجل تنظيف النفس ، لا تترك فيها الأشياء التى يمقتها الله لأنه فى النفس المتواضعة يسكن الآب والإبن والروح القدس فإنه مكتوب أية شركة للبر مع الإثم أو أية مساهمة للنور مع الظلمة . . . ، إحذر أن تشارك روح الكبرياء النجس ليقبلك الرب ، لأنه نجس بالحقيقة عند الله كل متعالى القلب .

فلنتضرع للرب بتواضع جزيل أن ينقذنا من الخوف المنتظر ويورثنا مع الودعاء المتواضعين ملك السموات .

. . . ويل للمستكبرين والمستعلين برأيهم فإن لهم أتون النار،

الرب يرسل إلى كرامتهم هواناً وإلى شرفهم ناراً متوقدة تحرق .

فلتهربن منذ الآن من الكبرياء التى يبغضها الرب ولتحبن تواضع العقل الذى به أرضى الرب جميع الصديقين ، لأن تواضع العقل قربان جسيم قدره وشرف عظيم وكرامة جزيلة للذين قد إقتنوه ، فباستعلاء الرأى ذل قدر ذلك الفريسى ، وبتواضع العقل أرتفع شأن العشار الذى معه . ليت الرب يؤهلنا للحظ الذى لا يبلى مع كافة الصديقين فإن له يليق المجد إلى الأبد آمين .

† † †

بعد أن نشرنا هذه الأقوال الذهبية للقديس افرام السريانى عن جراح الكبرياء التى لا شفاء لها والتى هى سموم الحية القاتلة للنفس ، نود أن نعرفك أيها القارىء العزيز ماقاله هو عن نفسه [1] .

« ... من يعطى لرأسى ماء ولعينى ينبوع دموع فأبكى نهاراً وليلا على جراحات نفسى وعلى رخاوة الموعظة الصائرة فى أيامنا؟! لأن نفسى مملوءة جراحات ولا تعلم ، لأن تعظمها لا يسمح لها أن تنظر كلومها فتشفى لأن ذلك وحده كان عظة فى أيام آبائنا لأنهم اشرقوا كالشمس والنجوم فى كافة الأرض ... من كان

(١) مقتطفات من المقالة الثانية .

يشاهد تواضع رأيهم ولا يتخشع أو وداعتهم فلا يتحير أى متكبر كان يرى سيرتهم الحسنة فلا ينتقل إلى التواضع ، وأى سخوط أو غضوب إذا كان يخاطبهم فلا ينتقل إلى الوداعة ، فأما العظة التى لنا فقد جعلتنا نترك الطريق المستقيمة .

ثم يقول أيضاً فى مكان آخر ... لا أرغب أن يتكبر على أحد وأشاء أن اتكبر ، حكيما فى الوعظ لكنى لست فى العمل حكيما ، أقول ما يجب أن يعمل وأعمل ما لا ينبغى أن يقال . من ذا لا يبكى على ، ابكوا على أيها الأبرار والصديقون أنا المضبوط بالآلام ، ابكوا أيها المحبون النور والباغضون للظلمة على المحب لأعمال الظلمة لا لأفعال النور . أيها المختبرون ابكوا على المنفى الغير المختبر . أيها الصائرون فوق كل مذمة ابكوا على الغريق فى الآثام ، أيها المحبون الخير والمبغضون الشر ابكوا على المحب للأفعال الخبيثة والمبغض للأعمال الصالحة ، أيها المتمسكون بالسيرة ذات الفضيلة ابكوا على الذى ترك العالم بالوى فقط ... أيها المقتنون الصبر والمشمرون فيه ابكوا على الغير صبور والعادم الثمر ... أيها المتقدمون إلى الله بلا خجل ابكوا على أنا الغير مستحق أن أتفرس وأبصر علو السماء ...

هأنذا قد كشفت لكم كلوم نفسى فلا تتوانوا فى أنا المتألم

لكن اطلبوا إلى الطبيب فى أمر السقيم ، إلى الراعى من أجل الخروف ... أنا لم أزل أعمى وأروم أن أرشد العميان فلذلك أنا محتاج إلى صلوات كثيرة حتى أعرف قدرى ولكى تظللنى نعمة المسيح وتضىء قلبى المظلم وتسكن فى عوض الجهالة معرفة إلهية لأنه لا يصعب على الله أمر ، هو منح العطاش ماء من صخرة صماء ، هو وحده خلص بصلاحه الواقع بين اللصوص ويتحنن صلاحه يخلصنى أنا الواقع فى الخطايا والمغلوب ...

ليست لى دالة لدى الفاحص القلوب والكلى ولا يستطيع أحد أن يشفى وجع نفسى إلا هو العالم أعماق القلب ... فلذلك أقرع الآن ليفتح لى وأليف طالباً كن لاخجل له أطلب أن أرحم ...

† † †

ويقول فى مقالته « فى النسك والتعزية »[1] ... يا إخوتى الأحباء أتضرع إليكم أن تحرصوا على أن ترضوا الله ، ابكوا قدامه نهاراً وليلا فى صلواتكم وترنيمكم لينقذكم من ذلك البكاء الذى لا ينقضى ومن صرير الأسنان ومن نار جهنم ومن الدود الذى لا يرقد ، ويفرحكم فى مملكته فى الحياة الخالدة حيث يهرب

(١) من المقالة الخامسة .

الوجع والحزن والتنهد حيث لا يحتاج أحد دموعاً ولا توبة ، حيث ليست مخافة ولا رعدة ، حيث لا يوجد المحارب والمعاند ، لا خصومة ولا سخط ، لا بغض ولا معاداة ، لكن الفرح والسرور الدائم والمائدة المملوءة أطعمة روحانية التى أعدها الله للذين يحبونه ، فغبوط من يؤهل لها وشقى من يعدمها .

أطلب إليكم يا أحبائى أن تسكبوا على تحتنكم وتشفعوا فى ساجدين لدى الله الوحيد الصالح العطوف ليصنع معى رحمة وينجينى من غزارة مآثمى ويسكنى حول مساكنكم فى ساحات الفردوس المبارك الوارثين إياه حتى أصير جاركم لأنكم أنتم الأولاد المحبوبون وأنا كالكلب المرفوض . انفضوا لى فتات موائدكم فيتم على الفصل المكتوب والكلاب تشبع من فتات المائدة المتساقط ، نعم يا أحبائى اسكبوا على صلواتكم وهللوا فلنحرص من أجل حياتنا فإن الأشياء كلها تعبر كعبور الظل ، ولنبغض العالم والأشياء التى فى العالم والاهتمام البشرى ولا نهتم بشىء آخر سوى الاهتمام بخلاصنا كما قال ربنا « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه » . أيها الإخوة نحن تجار روحانيون فلنتشبه بالتجار العالميين ، فالتاجر يحسب كل يوم ربحه وخسارته فإن

خسر يحرص ويهتم كيف ترد خسارته ، لذلك أنت أيها الحبيب
فى كل صباح وغداة ومساء تأمل بمبالغة كيف تتجر تجارتك، وفى
كل عشية ادخل إلى قلبك وتفكر وقل فى ذاتك أترانى أغضبت
الله فى شىء أو تكلمت كلمة بطالة أو جدفت ؟ أترانى أغضبت
أخى أو اغتبت أخى ... أم ترى جاءت إلىّ شهوة بشرية فقبلتها
بتلذذ ... وإذا جاء باكر النهار ادرس كيف أجزت هذه الليلة
أربحت فيها تجارتى ؟ أترى سهر عقلى مع جسمى؟ أدمعت عيناى
دموعا مع احناء ركبى أو جاءت إلىّ أفكار خبيثة ودوستها بتلذذ
ان اهتممت هكذا تسلم تجارتك وتصير مرضياً لله ولنفسك نافعاً.

ياحبيبى اجمع لنفسك من الكتب الإلهية غنى وكنزاً لا يسلب
وارسله إلى السموات لأن رؤساء الأرض إذا آثر أحدهم ان
يسافر إلى بلدة بعيدة يرسل قدامه غلمانه مع ثروته ليعدوا له مكان
راحته، كذلك افعل أنت لتقبل فى مساكن القديسين ولا تتوان
فى هذا الزمان القصير لئلا تندم إلى الدهور التى لا انقضاء لها...

† † †

صلاة للقديس

أيها السيد القدوس قد تقدمت إليك نفس حزينة متضرعة
إليك بعبرات لتنقذها من العدو المفسد ساجدة لك بتواضع
مستغيثة بك من المعاند الذى يحزنها ، فإذ قد دنت إليك بوقاحة
استجب لها سريعاً ، وإذ قد لجأت إليك بشوق تعهدها باهتمام،
فإنك إن أعرضت عنها هلكت حزينة وإن أبطأت عن استجابة
طلبها هلكت بالحسرة، فإن تفقدتها من أجل رأفاتك فقد ظفرت
وإن أقبلت بنظرك إليها خلصت... أيقظ الغيرة من أجلها لأنها
خطيبتك ، لا تعرض عنها لئلا يقتنصها العدو . أيها السيد أدبنى
برأفاتك ولا تسلمنى إلى يدى المفسد فإننى هأنذا قد جمعت أفكارى
من كل جهة فلم أجد شيئاً صالحاً أذكره قدامك سوى هذا فقط
« انى لست اعرف آخر سواك » ... ولا أنسى انك تتحملنى
من أجل تحننك ، لأن الأم المتحننة إذا خالفها طفلها لا تحتمل
أن تعرض عنه لأنها تغلب من تحننها . وها يا سيدى تحنن الطائر
مسكوب على فراخه وفى كل ساعة يفتقدها ويقدم لها طعاماً
ويغذيها بتعب لأنه يغلب من تحنناته ، فإن كان هذا شأن
المخلوقات فكم بالحرى نعمتك توافى الطالبين إليها بالحقيقة ،
وها أيضاً عين الماء مملوءة مياهاً تنبع بلا إنقطاع وتمنح المقبلين

إليها ماءها بلاحد ... ها عين لجة رأفاتك بلاحد تروى القوات السمائية والبرايا التى على الارض ، ... فأوضح إذاً فى تحننك الجزيل وارث لى وأرحنى من المفسد فإنه بعد أن جرحنى وقف يستهزىء بى، وكما تقدم التلاميذ فى البحر وأيقظوك وبصوت فمك المبارك انقطعت زوبعة الريح وسكن هياج البحر، هكذا استجب لعبراتى فإنها نهاراً وليلا توقظك . ان الأطباء تعبوا ١٢ سنة ولم يستطيعوا أن يشفوا نزيف المرأة السقيمة بل سببوا لها وجعاً زائداً ... أما أنت فنحتها البرء ، فارح نفسى الحزينة من تعيير العدو . أيها الطبيب المتحنن اظهر فى أعضائى حكمتك الجزيلة واجعل جراحاتى غير دنسة والمع فيها نور جمال الفضيلة ...

لك الملك والقوة والمجد إلى الابد آمين .

† † †

أودع بدار الكتب تحت رقم ٣٠٤٦ لسنة ١٩٦٩